٨٦٣٩
٨٦٣٩
١٨٩٥٣

حقيـقة النبـوة

الدكتور احمد راسم النفيس

الاستاذ بكلية الطب ـ جامعة المنصورة

جمهورية مصر العربية

رغم أن الانقسام المذهبي بين المسلمين يبدو قاصراً على مسألة الإمامة أو (ما بعد النبوة) إلّا أن التأمل في الطريقة التي يتناول بها البعض تلك المفاهيم المتعلقة بالنبوة يكشف أن هذا الانقسام والتفاوت قد طال أيضاً هذه المفاهيم وهو ما يبدو أمراً بالغ الأهمية والخطورة!!.

أسئلة كثيرة تطرحها تلك الأحاديث والروايات التي يلوكها البعض حول مقام النبوة وبشرية النبي الأكرم (ﷺ) وهل كان بشراً عادياً يصيب ويخطئ ومن ثم هل هناك صفات قياسية موحدة وثابتة لكل البشر؟!! .

أم أن البشرية من حيث هي بشرية درجات وصفات تزيد وتنقص يجمعها جامع مشترك ومع ذلك فليس كل البشر سواء كما أنه من الثابت أن ليس كل الأنبياء سواء!!.

البشر في الغالب الأعم متشابهون ولكنهم أبداً ليسوا متطابقين فكلهم يولدون من أب وأم وهم بعد قليل أو كثير يموتون وفي التراب يدفنون وكلهم يأكلون ويشربون ويتنفسون كما أنهم يفرحون ويحزنون ويحبون ويكرهون... وتلك هي بعض الصفات البشرية المشتركة ورغم ذلك التشابه فهم حتى في هذه الصفات لا يتطابقون كما أنهم في بعض هذه الصفات مع غيرهم من المخلوقات يتشابهون!!.

البشر عندما يموتون، في التراب يدفنون إلّا أن الله تبارك وتعالى اختص الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون فما بالك بخاتم الأنبياء والمرسلين وذريته من الأئمة الطاهرين (إنه يموت من مات منا وليس بميت ويبلى من بلي منا وليس ببال)!!.

لم يُخلق الإنسان من طينة واحدة ﴿انّا خَلقنَا الانسانَ مِن نُّطفةٍ أمْشاجٍ نبتَليهِ فَجَعَلْنَاهُ سمِيعاً بَصِيراً﴾ الانسان (٢).

كما أن هذه الطينة تبقى حاكمة ومؤثرة في صياغة السلوك الانساني ﴿أنّا هدَيناه السبيلَ امّا شاكِراً وامّا كفوراً﴾ الانسان (٣).

هذه الطينة يمكن أن تهبط بصاحبها اما الى أسفل سافلين أو ترفعه الى أعلى عليين ﴿انّا أعتدنا للكافرين سلاسلا وأغلالاً وسعيراً. انّ الأبرارَ يشربونَ من كأسٍ كانَ مزاجها كافوراً. عيناً يشرب بها عِباد الله يفجرونها تفجيراً. يُوفون بالنذر ويخَافونَ يوماً كانَ شرُّه مستطيراً. ويُطعمونَ الطعامَ على حُبهِ مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنّما نُطعمكم لوجه الله لا نُريد منكم جزاءً ولا شُكوراً. انا نخافُ من ربِّنا يوماً عبوساً قمطريراً. فَوقاهم الله شرَّ ذلكَ اليومِ ولقاهم نضرةً وسروراً. وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً. متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً. ودانيةً عليهم ظلالها وذُللت قطوفُها تذليلاً﴾ الانسان (٤ ـ ١٤).

لو كانَ للبشرية معنى واحد لما صار بعض (الناس) هم والكلاب سواء ﴿واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناهُ آياتنا فَانسلخَ منها فَأتبعهُ الشَّيطانُ فكانَ من الغاوينَ. ولو شئنا لرفعناهُ بها ولكنهُ أخلدَ الى الأرض واتبعَ هواهُ فمثلهُ كمثلِ الكلبِ إنْ تحمِل عليه يلهث أو تترُكه يلهث ذلكَ مثلُ القومِ الذين كذَّبُوا بآياتنا فاقصص القصصَ لعلهم يتفكرونَ﴾ الأعراف (١٧٤ ـ ١٧٦).

فهناك من تماثل في انسانيته أو بهيميته الضالة المتخبطة مع الأنعام أو هم أضل ﴿ولقدَ ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرونَ بها ولهم آذان لا يسمعونَ بها اولئك كالأنعامِ بل هم أضلُّ أولئك همُ الغافلونَ﴾. الأعراف (١٧٩).

وهناك من استوت انسانيته مع القردة والخنازير ﴿قُل هل أنبئكُم بشرٍّ من ذلك مثوبةً عندَ الله من لعنهُ الله وغضبَ عليه وجعلَ منهم القردة والخنازير وعبدَ الطاغوتَ أولئك شرٌّ مكاناً وأضلُّ عن سواء السبيل﴾ المائدة (٦٠).

أما الأبرار فهم في عليين رغم أنهم بشر يأكلون الطعام ويمشون في الاسواق ولكنهم عليون في الدنيا قبل الآخرة ﴿كلا أن كتابَ الأبرار لفي علّيين. وما أدراكَ ما عليُّون. كتابٌ مرقومٌ. يشهدهُ المُقربونَ. ان الأبرار لفي نعيم. على الأرائك ينظرونَ. تعرفُ في وجوههم نضرةَ النعيم. يسقونَ من رحيق مختوم. ختامهُ مسك وفي ذلك فليتنافس المُتنافسون. ومِزاجه من تسنيم. عيناً يشربُ بها المُقربونَ﴾ (١٨ ـ ٢٨) المطففين.

الكافي ج ٢: عن أبي جعفر (عليه السلام) قال: ان الله عز وجل خلقنا من أعلى عليين وخلق قلوب شيعتنا مما خلقنا منه وخلق أبدانهم من دون ذلك وقلوبهم تهوي الينا لأنها خلقت مما خلقنا منه ثم تلا هذه الآية ﴿كلا ان كتاب الابرار لفي عليين وما أدراك ما عليون. كتاب مرقوم يشهده المقربون﴾ وخلق عدونا من سجين وخلق قلوب شيعتهم مما خلقهم منه وأبدانهم من دون ذلك فقلوبهم تهوي اليهم لأنها خلقت مما خلقوا منه ثم تلا هذه الآية: ﴿كلا ان كتاب الفجار لفي سجين وما أدراك ما سجين كتاب مرقوم ويل يومئذ للمكذبين﴾.

فهل بقي من يزعم أن للانسانية معنى واحداً يشترك فيه الأدنى والأعلى ويستوي فيه أبرار عليين مع فجار سجين ممن يعيشون وهم يستمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم أي أنهم بشر ولكنهم أسفل سافلين ثم يموتون ليتلقفهم قعر جهنم الى أن يأتي يومهم الذي كانوا يوعدون؟!.

وهل بقي من يدعي أن رسول الله محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) كان بشراً كأشباه البشر وهل يعرف هؤلاء معنى البشرية الحقيقية وقد ارتكس بعضهم في درجات الحيوانية وظلمات البهيمية رغم أن الصورة صورة انسان أما الحقيقة فلا تعدو كونها حقيقة من أشرنا اليه من صنوف الحيوان!!.

أن يكون رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بشرا مثلنا يوحى اليه فهذا ليس موضع خلاف ﴿قُل انّما

أنا بشرٌ مثلكم يوحى الي أنّما الهكُم اله واحدٌ فمن كان يرجو لِقاء ربهِ فليعمَل صالحاً ولا يُشرك بعبادةِ ربهِ أحداً﴾ الكهف (١١٠).

انها مثلية قاصرة على تلك المشتركات التي تجمع بني الانسان ولكنها وبكل تأكيد ليست مثلية مطلقة بل مثلية الصورة لخارجية وشتان ما بين من اختاره ربه واصطفاه على الأنبياء والمرسلين وجعله حجة على العالمين وهو من باب أولى على رأس عالم الأبرار المقربين بينما يقطن على السفح المقابل من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت رغم أنهم يشتركون مع الجميع في مثلية الصورة التي لا يمكن لها أن تنفي التناقض المطلق بين العالمين عالم الحقيقة الممتدة من الأرض صعوداً الى أعلى عليين وعالم الانحطاط الممتد سقوطاً الى أسفل سافلين!!.

ألم يصف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) بعض هؤلاء الأشباه بقوله (فالصورة صورة انسان والقلب قلب حيوان لا يعرف باب الهدى فيتبعه ولا باب العمى فيصد عنه فذلك ميت الأحياء). خطبة ٨٦ نهج البلاغة.

أما السبب وراء هذا التفاوت الشاسع ما بين السماء والأرض وبين عليين وسجين فيشرحه لنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) بقوله:

ثمَّ جمعَ سُبحانه مِن حزنِ الأرض وسهلهَا، وعذبهَا وسبخهَا، تربةً سنّها بالماءِ حتَّى خلصَت، ولاطهَا بالبلَّة حتَّى لزَبت، فجبلَ مِنها صورةً ذاتَ أحناء ووصُول وأعضاء وفُصول أجمدهَا حتَّى استمسكت وأصلدها حتَّى صلصلت لوقت معدُود وأجل معلُوم ثمَّ نفخَ فيها من روحِه فمثُلت انسانَ ذا أذهان يُجيلها، وفكر يتصرفُ بها وجوارحَ يختدمُها وأدوات يُقلبها ومعرفة يفرقُ بها بين الحق والباطل والأذواق والمشام والألوان والأجناس معجوناً بطينةِ الألوانِ المُختلفة والاشباهِ المؤتلفة، والأضدادِ المتعادية والأخلاطِ المُتباينة من الحر والبردِ والبلةِ والجمودِ والمساءة والسرور واستأدى الله سبحانه الملائكة وديعته لديهم وعهدَ وصيته اليهم، في الاذعان بالسجودِ له، والخنُوع لتكرمته، فقالَ عز من قائل: ﴿اسجدوا لآدم فسجدوا إلّا ابليس﴾ وقبيلهُ اعترتهم الحميةُ وغلبت عليهم الشقوةُ، وتعززوا بخلقة النار، واستوهنوا خلق الصلصالِ، فأعطاه الله تعالى

النظرةَ استحقاقاً للسخطةِ، واستتماماً للبليةِ، وإنجازاً للعدةِ، فقال: (انَّكَ من المُنظرين الى يومِ الوقتِ المعلومِ). خطبة ١ نهج البلاغة.

لقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (بشراً مثلنا) في الصورة الخارجية ولكننا أبداً لسنا بشراً مثله في حقيقته العلية وإلّا فما هو معنى طلبه سبحانه وتعالى منا أن نتخذه أسوة ونموذجاً ومثلا أعلى يحتذى به ﴿لقدَ كان لكُم في رسولِ الله اسوةٌ حسنةٌ لمن كانَ يرجو الله واليومَ الآخر وذكرَ الله كثيراً﴾ الأحزاب ٢١.

تلك هي القضية التي غفل عنها الغافلون اما سهواً أو عمداً سواء أولئك الذين حرصوا على تقديم رسول الله في صورة (مبلغ أمين) أدى ما عليه وأبلغ نصوص الدين وتركها بين يدى صحابته والتابعين وتابعي التابعين وأنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يكن له عصمة في غير مجال التبليغ حيث كان في بقية حالاته بشراً مثلهم يصيب ويخطئ ويرضى ويغضب، ورغم أن البعض الآخر قد أسبغ عليه صفة العصمة في كل حالاته إلّا أنه يرى أن مهمته الرئيسية وربما الوحيدة كانت هي التبليغ ولا شيء سوى التبليغ رغم أننا في هذا البحث سنثبت أن رسول الله كان واسطة العقد بين الأرض والسماء في كل المجالات رحمة وعلماً ورفعة ومقاما وآخر هذه المقامات هو مقام التبليغ!!.

رسولنا رحمة للعالمين:

يقول سبحانه:

﴿وَمَا أرسَلناكَ إلَّا رَحْمَةً للعَالَمِينَ﴾ الأنبياء ١٠٧.

﴿ومنهمُ الذينَ يؤذونَ النبيَّ ويقولونَ هو اذنٌ قُل اذنُ خير لكم يؤمنُ بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكُم والذين يؤذون رسول الله لهم عذابٌ اليم﴾ التوبة ٦١.

﴿فبِما رحمةٍ من الله لنت لهُم ولو كنتَ فظاً غليظاً القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحبُّ المتوكلين﴾ آل عمران ١٥٩.

﴿يا أيّها النّاس قد جاءتكم موعظةٌ من ربكم وشفاء لما في الصدُور وهدى ورحمة للمؤمنين﴾ يونس ٥٧.

﴿أفمن كانَ على بينةٍ من ربهِ ويتلوهُ شاهدٌ منهُ ومِن قبلهِ كتابُ موسى اماماً ورحمةً اولئك يؤمنون به ومن يكفر به من الأحزابِ فالنار موعدهُ فلا تك في مريةٍ منه انه الحقُّ من ربكَ ولكن أكثر الناس لا يؤمنونَ﴾ هود ١٧.

﴿ومَا أنزلنا عليكَ الكتابَ إلّا لِتبين لهمُ الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمةً لقومٍ يؤمنون﴾ النحل ٦٤.

الشاهد من هذه الآيات أن الله تبارك وتعالى قد أرسل نبينا الأكرم محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) رحمة للعالمين وأن هذه الرحمة الالهية ليست قاصرة على حفظ وتبليغ نصوص الكتاب المنزل من عند الله بلسان عربي مبين.

انه رحمة للعالمين للانس والجن والطير والجبال والشجر والدواب، رحمة سمع بها الجن فآمنوا ﴿قُل اوحي الي أنّه استمعَ نفر من الجِن فقالوا انّا سمِعنا قُرآناً عجباً. يهدي الى الرُّشد فآمنا به ولن نُشرك بربنا أحداً﴾ الجن (١ ـ ٢).

الرسول الأكرم كان في ذاته وصفاته ووجوده رحمة للناس عامة ولأمة لا اله إلّا الله خـــاصة ﴿لقد جاءكُم رسولٌ من أنفسكُم عزيزٌ عليه ما عنتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ التوبة ١٢٨.

لقد كان وجوده (صلى الله عليه وآله وسلم) أماناً لهذه الأمة من الضلال وأماناً من العذاب وهو المعنى الذي رواه أبو جعفر الباقر عن علي بن ابي طالب (عليه السلام): كان في الأرضِ أمـانانِ مـن عذابِ الله سبحانهُ وقد رفع أحدهما فدُونكم الآخر فتمسكُوا به أمّا الأمانُ الذي رُفع فهُو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأما الأمان الباقي فالاستغفار قال تعالى ﴿ومَا كان الله ليُعذبهم وأنت فيهم ومَا كانَ الله مُعذبهم وهُم يستغفرونَ﴾ الأنفال ٣٣.

بين محمد وموسى

الذين ما فتئوا يلتون ويعجنون وينقصون ولا يزيدون من مقام نبيهم سيد الكائنات

ويقدمونه للناس بشراً مثلهم من أصحاب البشرية الهابطة لا يقرأون القرآن ولا يتدبرون معانيه لأن على قلوب أقفالها كما أنه قد ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون وفات هؤلاء أن الرسل والأنبياء مقامات وأن تفاضل الرسل ليس تفاضلاً لفظياً بل هو تفاضل واقعي قائم على أساس الدليل والبرهان.

التفاضل بين الأنبياء والرسل هو تفاضل في المهمات والتكاليف الملقاة على عاتق كل نبي من هؤلاء الأنبياء، ولا شك أن خاتم النبيين المبعوث رحمة للعالمين قد حمل على كاهله مجموع ما حمله كل هؤلاء الأنبياء فضلاً عن عبء هادية البشرية بأسرها منذ مبعثه الى يوم الفصل بين الخلائق أجمعين.

يقول تعالى:

﴿تلكَ الرُّسل فضلنَا بعضهُم على بعضٍ منهُم من كلَّم الله ورفعَ بعضهم درجاتٍ وآتينا عيسى ابن مريم البيناتِ وآيدناهُ بروح القُدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين مِن بعدهِم من بعدِ ما جاءتهمُ البينات ولكن اختلفوا فمنهُم من آمن ومنهُم من كفرَ ولوشاء الله ما اقتتلوا ولكنَّ الله يفعلُ ما يريدُ﴾ البقرة ٢٥٣.

﴿ورسلاً قد قصصناهُم عليكَ مِن قبلُ ورسلاً لم نقصصهم عليكَ وكلّم اللهُ مُوسى تكليماً﴾ النساء ١٦٤.

واذا كان القرآن الكريم قد حكى لنا عن الطريقة التي كلم الله بها موسى تكليماً في أكثر من موضع بالواد المقدس طوى أو عندما ذهب موسى لميقات ربه ﴿وواعدنَا موسى ثلاثين ليلةً وأتممناهَا بعشرٍ فتمَّ ميقاتُ ربه أربعين ليلةً وقالَ مُوسى لأخيهِ هارونَ اخلُفني في قومي وأصلح ولا تتَّبع سبيلَ المُفسدين. ولمَّا جاء مُوسى لميقاتنا وكلَّمهُ ربُّه قالَ ربِّ أرني أنظر اليك قالَ لن تراني ولكن انظر الى الجبَل فانِ استقرّ مكانه فسوف تراني فلمّا تجلّى ربّه للجبل جعلهُ دكّاً وخرَّ موسى صعقاً فلمَّا أفاق قال سُبحانك تُبت اليك وأنا أول المؤمنين. وقال يا موسى انَّي اصطفيتك على النّاس برسالاتي وبكلامي فخُذ ما آتيتُك وكن من الشَّاكرين. وكتبنا له في الألواح مِن كُل شيء موعظةً وتفصيلاً لكل شيء فخُذها بقوةٍ وأمر قومكَ يأخذوا بأحسنها ساريكم دارَ الفاسقين﴾ الأعراف ١٤٢ ـ ١٤٥.

الشيء الثابت من هذه الآيات أن موسى (عليه السلام) وهو من أولي العزم من الرسل لم يقدر على احتمال موقف المشافهة الالهية وليس موقف الرؤية الالهية المباشرة المحكوم باستحالتها شرعاً وعقلاً.

لم يتمكن موسى (عليه السلام) من احتمال عظمة الموقف فكان أن خرّ صعقاً بينما يحكي لنا كتاب الله في سورة النجم ﴿والنَّجمِ اذا هوى. ما ضلّ صاحبُكم ومَا غوى. وما ينطقُ عن الهوى. ان هو إلّا وحيٌ يوحى. علمهُ شديدُ القوى. ذو مرةٍ فاستوى. وهو بالأفقِ الأعلى. ثُم دنا فتدلَّى. فكان قابَ قوسين أو أدنى. فأوحى الى عبدهِ ما أوحى. ما كذبَ الفُؤادُ ما رأى. أفتمارونهُ على ما يرى. ولقد رآه نُزلةً اخرى. عند سدرةِ المُنتهى. عندهَا جنةُ المأوى. اذ يغشى السدرةَ ما يغشى. ما زاغَ البصرُ وما طغَى. لقد رأى من آيات ربهِ الكبرى﴾ (١ ـ ١٨).

يقول القمي في تفسير هذه الآيات: هو قسم برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو فضل له على الانبياء وجواب القسم (ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى) أي لا يتكلم بالهوى (ان هو) يعني القرآن (إلّا وحي يوحى علمه شديد القوى) يعني الله عز وجل (ذو مرة فاستوى) يعني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

قال: وحدثني ياسر عن ابي الحسن الرضا (عليه السلام) قال: ما بعث الله نبيا إلّا صاحب مرة سوداء صافية وقوله (وهو بالأفق الأعلى) يعني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) (ثم دنا) يعني رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من ربه عز وجل (فتدلى) قال انما نزلت هذه ثم دنا فتدانى (فكان قاب قوسين او أدنى) قال كان من الله كما بين مقبض القوس الى رأس السية (أو أدنى) أي من نعمته ورحمته قال بل أدنى من ذلك (فأوحى الى عبده ما أوحى) قال وحي مشافهة.

يقول الراغب الأصفهاني في (مفردات القرآن): أصل الوحي الاشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل أمرٌ وحيٌ وذلك بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد من التركيب وباشارة ببعض الجوارح وبالكتابة ويقال للكلمة الالهية التي تلقى الى أنبيائه وأوليائه وحيٌ وذلك على أنواع حسبما دل عليه قوله تعالى ﴿ومَا كانَ لبشر أن يُكلمهُ الله إلّا وحياً أو مِن وراء حجابٍ أو يُرسل رسولاً فيُوحي باذنه ما يشاء انّه عليٌّ

حكيمٌ﴾ الشورى ٥١. وذلك إما برسول مشاهد ترى ذاته ويسمع كلامه كتبليغ جبريل (عليه السلام) للنبي في صورة معينة واما بسماع كلام من غير الروع كما ذكر (صلى الله عليه وآله وسلم) (ان روح القدس نفث في روعي) واما بالهام نحو (وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه) واما بتسخير نحو قوله (وأوحى ربك الى النحل) أو بمنام كما قال (صلى الله عليه وآله وسلم) (انقطع الوحي وبقيت المبشرات رؤيا المؤمن) فالالهام والتسخير والمنام دل عليه قوله (إلّا وحيا) وسماع الكلام معاينة دل عليه قوله (أو يرسل رسولاً فيوحي).

كما يقول الشيخ الطوسي في كتاب التبيان: يقول الله تعالى انه ليس لبشر من الخلق أن يكلمه الله إلّا أن يوحي اليه وحيا (أو من وراء حجاب) معناه أو بكلام بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب لأنه تعالى لا يجوز عليه ما لا يجوز إلّا على الاجسام من ظهور الصورة للابصار (أو يرسل رسولاً) فيكون كلام الله لعباده على ثلاثة أقسام:

أولها: أن يسمع منه كما يسمع من وراء حجاب، كما خاطب الله به موسى (عليه السلام).

الثاني: بوحي يأتي به الملك الى النبي من البشر كسائر الأنبياء.

الثالث: بتأدية الرسول الى المكلفين من الناس، وقيل في الحجاب ثلاثة أقوال:

أحدها ـ حجاب عن ادراك الكلام لا المكلم وحده.

الثاني ـ حجاب لموضع الكلام.

الثالث ـ انه بمنزلة ما يسمع من وراء حجاب (فيوحي باذنه ما يشاء) ومعناه ان ذلك الرسول الذي هو الملك يوحي الى النبي من البشر بأمر الله ما شاء الله (انه علي حكيم) معناه ان كلامه المسموع منه لا يكون مخاطبة يظهر فيها المتكلم بالرؤية، لأنه العلي عن الادراك بالابصار وهو الحكيم في جميع أفعاله وفي كيفية خطابه لخلقه.

والمعنى أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد تلقى الوحي من رب العزة ليلة عروجه الى السماوات العلا وكلمه الباري عز وجل من وراء حجاب تعالى سبحانه عن أن يُرى كما تُرى الأجسام والأشياء، وهنا يبدو الفارق جلياً بينه وبين موسى كليم الله الذي خر يومها صعقاً حيث لم يقدر سلام الله عليه على احتمال موقف القرب من الله تبارك وتعالى فلم يستقر قائما على أقدامه، أما الجبل فقد لم يصمد عندما باغته هذا التجلي الإلهي فكان أن

هوى من على دعائمه وأركانه.

الجبال في صلابتها وشموخها ورسوخها عابدة لله عبادة تكوينية ﴿ألَم ترَ أنَّ الله يسجدُ لهُ من في السَّماواتِ ومَن في الأرض والشَّمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ وكثيرٌ من الناس وكثيرٌ حقَّ عليهِ العذابُ ومن يُهن الله فما له من مكرم ان الله يفعلُ ما يشاء﴾ الحج ١٨.

الجبال تسبح وترجع وتسجد وتركع ﴿ولقَد آتينا داوُد منَّا فضلاً يا جبالُ أوِّبي معهُ والطيرَ وألنا له الحديدَ﴾ سبأ ١٠.

﴿انَّا سخَّرنا الجبالَ معهُ يُسبحنَ بالعشي والاشراقِ﴾ ص ١٨.

ولكنها ورغم ذلك لا تقدر على احتمال موقف القرب كما أنها أشفقت من حمل أمانة الله وكلماته ﴿انَّا عرضنَا الأمانةَ على السماواتِ والأرض والجبالِ فأبينَ أن يحمِلنها وأشفقن مِنها وحملهَا الانسان انَّه كانَ ظلوماً جهولاً﴾ الأحزاب ٧٢.

فأي قوة وأي رفعة واي مكانة كانت لرسول الله الذي كان كما وصفه الله تبارك وتعالى ﴿شديدَ القُوى. ذو مرةٍ فاستوى. وهوَ بالافُق الأعلى. ثمَّ دنا فتدلَّى. فكانَ قابَ قوسين أو أدنى﴾.

كان رسولنا الأكرم محمد (ﷺ) شديد ذا القوى ذا مرة صلبة قوية صافية (رجل مرير أي قوي ذو مرة) وهي قوة ضرورية ولازمة للقيام بأمر هذا الدين لا مجرد تبليغ كتاب الله وتلاوته وهو ما يقدر عليه الأطفال من تلاميذ الكتاب الذين يحفظ بعضهم كتاب الله ومع ذلك فلا أحد يزعم أن أحداً منهم قد أصبح شديد القوى أو أنه أصبح ذا مرة فاستوى ولم يتضعضع كما تضعضع الجبل عندما رأى سبحة من نسبحات نور رب العلا أو أنه لم يخر صعقاً كما خر موسى عندما أصبح الجبل دكاً!!.

تلك القوة التي خص بها نبينا الأكرم محمد (ﷺ) (في بشريته) كانت لازمة لتحمل أعباء وأمانة انقاذ البشرية المتمردة على أمر ربها وخالقها من الهلاك والبوار ﴿فلعلكَ باخعٌ نفسكَ على آثارهم ان لَّم يُؤمنوا بهذا الحديثِ أسفاً﴾ الكهف ٦.

كما أنها كانت لازمة لتحمل ما ألحقه بعض المنتسبين للاسلام من أذى برسولهم الكريم.

﴿لقد جاءكُم رسولٌ من أنفسكُم عزيزٌ عليه ما عنتُّم حريصٌ عليكُم بالمؤمنينَ رؤوفٌ رحيمٌ. فان تولوا فقُل حسبي الله لا اله إلّا هو عليه توكلتُ وهُو ربُّ العرش العظيم﴾ التوبة (١٢٨ ـ ١٢٩).

﴿ن والقلَم ومَا يسطرُونَ. ما أنتَ بنعمةِ ربك بمجنُونٍ. وان لكَ لأجراً غيرَ ممنونٍ. وانّك لعلى خُلقٍ عظيمٍ. فستبصر ويبصرونَ. بأييكم المفتُون. ان ربكَ هو أعلمُ بمن ضل عن سبيله وهو أعلمُ بالمهتدينَ. فلا تُطع المكذبينَ. ودوا لو تُدهن فيدهنونَ. ولا تُطع كل حلافٍ مهين. هماز مشاء بنميم. مناعٍ للخير مُعتدٍ أثيمٍ عُتل بعدَ ذلك زنيم. أن كان ذا مالٍ وبنين. اذا تُتلى عليه آياتنا قالَ اساطيرُ الأولينَ﴾ القلم (١ ـ ١٥).

﴿فَاصبر لحُكم ربك ولا تُكن كصاحبِ الحوتِ اذنادى وهو مكظومٌ. لولا أن تداركه نِعمةٌ من ربهِ لنُبذَ بالعراءِ وهو مذمومٌ. فاجتباهُ ربُّهُ فجعَلهُ من الصالحين. وإن يكادُ الذينَ كفروا ليُزلقونكَ بأبصارهِم لَما سمِعوا الذِّكرَ ويقولونَ إنهُ لَمجنون. وما هو إلّا ذِكرٌ للعالمين﴾. القلم (٤٨ ـ ٥٢).

﴿يا أيُّها الرسولُ لا يحزُنكَ الذينَ يُسارِعونَ في الكُفر من الذينَ قالوا آمنّا بأفواههم ولم تُؤمن قلُوبُهم ومِن الذين هادُوا سمَّاعونَ للكذبِ سمَّاعون لقومٍ آخرين لم يأتوكَ يُحرِّفونَ الكَلِم مِن بعدِ مواضِعهِ يقولُونَ إن أُوتيتم هذافخُذوهُ وإن لم تُؤتوهُ فاحذروا ومن يُرد الله فتنتهُ فلن تَملك لهُ من الله شيئاً أُولئكَ الذين لم يردِ الله أن يُطهرَ قُلوبهُم لهم في الدُّنيا خِزيٌ ولهم في الآخرةِ عذابٌ عظيم. سماعونَ للكَذبِ أكالُونَ للسُّحتِ فإن جاؤوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن تُعرض عنهم فلن يضرُّوكَ شيئاً وإن حكمتَ فاحكُم بينهم بالقسطِ إنَّ الله يُحبُّ المُقسطين﴾ المائدة (٤١ـ٤٢).

﴿ومِنهم من يلمزُك في الصدقاتِ فإن أُعطوا منها رضُوا وإن لم يُعطوا مِنها إذا هم يسخطون. ولو أنهُم رضوا ما آتاهم الله ورسولهُ وقالوا حَسبُنا الله سيؤتينا الله من فضلهِ ورسولُهُ إنّا الى الله راغبون. إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكين والعاملينَ عليها والمُؤلّفةِ

قُلوبُهم وفي الرّقابِ والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضةً مِن الله والله عليمٌ حكيم. ومِنهم الذين يؤذُونَ النبيَّ ويقولُون هو أذُنٌ قُل أذنُ خير لكم يؤمِن بالله ويؤمنُ للمؤمنين ورحمةٌ للذين آمنوا مِنكم والذينَ يُؤذون رسول الله لهُم عذابٌ أليم. يَحلِفون بالله لكُم ليرضوكُم والله ورسولُه أحقُّ أن يُرضوهُ إن كانوا مؤمنين. ألم يعلمُوا أنّهُ من يُحادِدِ اللهَ ورسولَهُ فأنَّ لهُ نار جهنم خالداً فيها ذلكَ الخِزيُ العظيم. يحذرُ المنافقونَ أن تُنزلَ عليهم سورةٌ تُنبِّئُهُم بما في قلوبهم قُل استهزئوا إنّ الله مُخرجٌ ما تحذرُون. ولئن سألتهم ليقولُنَّ إنما كُنّا نخوضُ ونلعبُ قُل أبالله وآياته ورسولهِ كنتم تستهزئون﴾. التوبة (٥٨ ـ ٦٥).

لقد كانت النبوة المحمدية إذاً رحمة للعالمين وقد حمل رسولنا في قلبه هم الأمة حزناً على هؤلاء المعرضين ورحمة لهؤلاء المتفلتين خوفاً عليهم من سيئات أعمالهم وخوفاً على الأمة من فتنهم وأحابيلهم التي أوردت عامة المسلمين دار البوار.

التغني بمدح رسول الله (ﷺ) وذكر مقاماته هو في حقيقة الأمر تذكير وتنويه بصفات الكمال التي يتعين على كل مسلم يرغب في الوصول الى رضوان الله أن يتحلى بها، وفي مقابل ذلك فإن طمس هذه الكمالات وكتمانها هو تقزيم لقيم الدين السامية والرفيعة وهذه هي الحفرة التي يريد البعض لنا أن نبقى فيها ليبقى الدين لعقا يلوكه الناس بألسنتهم وقميصاً يتقمصه أولئك الذين طلبوا الدنيا كل الدنيا مقابل القليل من عمل الآخرة بعيداً عن النموذج الحقيقي للعمل الطيب الذي لا يقبل غيره (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه).

بين محمد وعيسى

إذا كان المنحرفون بالنصرانية قد اتجهوا نحو الغلو في عيسى (عليه السلام) واعتباره ابنا لله وثالث ثلاثة ﴿يا أهلَ الكتابِ لا تَغلُوا في دينكُم ولا تقولوا على الله إلّا الحقَّ إنّما المسيحُ عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلِمتهُ ألقاها الى مريم ورُوحٌ منهُ فآمِنوا بالله ورُسلِه ولا تقولُوا ثلاثةٌ انتهوا خيراً لكُم إنّما الله إلهٌ واحدٌ سبحانَهُ أن يكونَ لهُ ولدٌ لهُ ما في

السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً﴾ النساء ١٧١، فإن المنحرفين بالإسلام قد اتجهوا اتجاهاً معاكساً نحو الحط من مكانة رسول الله (ﷺ) سواء كان هذا بصورة مباشرة أو من خلال التنكر لمكانة أهل بيته وعترته الطيبين الطاهرين.

لاشك في اختلاف بشرية عيسى (عليه السلام) المولود من غير أب عن المفهوم العام للبشرية ولكنه في النهاية كان بشراً تحمل التعذيب والألم كي يوصل كلمات الله لبني إسرائيل، ومن ثم فهو في النهاية كان بشراً يألم ويتحمل ويصبر كما أنه كان عبداً لله أنعم الله عليه وجعله مثلاً لبني إسرائيل، ويبقى أن هذه طبيعة النبوة والرسالة التي حملها الإنسان الكامل ليكون قدوة للإنسان الناقص في سعيه نحو مرضاة الله عز وجل.

الانحراف برسالة عيسى (عليه السلام) كان ولازال انحرافاً تأويلياً عندما توهم هؤلاء معنى تجسيدياً (للكلمة) و(الروح) وكان أن نبههم كتاب الله لخطورة هذا الانحراف (ولا تقولُوا ثلاثةٌ) ولم يقل لهم (ثلاثة آلهة) فهم لا يقولون بتعدد الآلهة بل بتعدد الصفات الإلهية وزيادتها على الذات بل وإمكان انفصالها عن الذات الإلهية وتجسدها في صورة ابن لله ينزل الى الأرض ويذبح فداء لخطايا البشرية، والدافع لهذا الخطأ الفادح كان فرط تقديسهم للمسيح عيسى ابن مريم وأمه الصديقة مريم التي حملت في ذاتها تلك الروح الإلهية!!.

لم يكن لعيسى (عليه السلام) زوجة ولا ولد بل كان له حواريون ينصرونه وينقلون رسالته وكلماته للناس ﴿يا أيُّها الذينَ آمنُوا كُونوا أنصارَ الله كما قالَ عيسى ابنُ مريمَ للحواريِّين من أنصاري الى الله قالَ الحواريُّونَ نحنُ أنصارُ الله فآمنت طائفةٌ من بني إسرائيل وكفرت طائِفةٌ فأيّدنا الذينَ آمنُوا على عدُوِّهِم فأصبحُوا ظاهرين﴾ الصف ١٤، ولذا فقد أكرمهم الله بمخاطبته ﴿وإذ أوحَيتُ إلى الحواريِّين أن آمِنُوا بي وبرسولي قالُوا آمنَّا واشهَد بأنَّنا مُسلِمون﴾ المائدة ١١١.

لقد أنعم الله على الحواريين بمائدته ولكنه كان إنعاماً مشروطاً بشرط دوام التصديق والإيمان ﴿إذ قال الحواريُّون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربُّكَ أن يُنزل علينا مائِدةً من السماء قال اتّقُوا الله إن كنتُم مؤمنين. قالُوا نُريدُ أن نأكُل مِنها وتطمئِنَّ قُلُوبُنا ونعلَمَ أن

قد صدَقتَنا ونكُون عليها مِن الشاهدين. قال عيسى ابن مريَم اللهُم ربَّنا أنزل علينا مائِدةً من السماء تكُون لنَا عيداً لأوّلنَا وآخرنَا وآيةً منك وارزُقنَا وأنت خيرُ الرازقين. قالَ اللهُ إنِّي مُنزِّلها عليكُم فمن يكفُر بعدُ مِنكُم فإنّي أُعذِّبُهُ عذاباً لا أُعذِّبُهُ أحداً من العالمينَ﴾ (١١٢ ـ ١١٥).

حدث الانحراف والغلو بعد ذلك وهو انحراف أخرج الكثير من هؤلاء عن حقيقة التوحيد الذي جاء به نبي الله عيسى (عليه السلام) كبقية أنبياء الله ورسله ومن ثم جاءت خاتمة سورة المائدة لتضع الأمور في نصابها وتعلن براءته (عليه السلام) من هؤلاء وممن ساروا على نهجهم المنحرف والمعوج.

﴿وإذ قالَ الله يا عيسى ابن مريمَ أأنتَ قُلتَ للنّاس اتّخذُوني وأُمي إلهين من دُونِ الله قالَ سبُحانكَ ما يكُونُ لي أن أقُولَ ما ليس لي بِحقٍّ إن كنتُ قُلتُهُ فقَد علمتَهُ تعلَمُ ما في نفسي ولا أعلمُ ما في نفسكَ إنّكَ أنت عَلامُ الغُيوبِ. ما قُلتُ لَهُم إلّا ما أمرتني بِهِ أن اعبُدُوا الله ربّي وربّكُم وكُنتُ عليهم شهيداً مادُمتُ فيهم فلمّا توفّيتني كُنتَ أنت الرقيب عليهم وأنتَ على كُلِّ شيءٍ شهيد. إن تُعذِّبهُم فإنّهُم عِبادُكَ وإن تغفر لهُم فإنك أنتَ العزيزُ الحكيم﴾ المائدة (١١٦ ـ ١١٨).

المنحرفون بالإسلام اختاروا السير كما أسلفنا في الطريق المضاد، طريق التعبد بالرأي والأهواء، وكانت العقبة الكبرى في طريقهم هو خط الإمامة والاقتداء بالصالحين من ذرية محمد وهم آله وعترته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وهو الخط الذي اختاره الله لهم وبينه رسول الله في غير موضع لهذه الأمة التي استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير.

إنه الصراط المستقيم الذي حدده الله تبارك وتعالى ورسمه لهذه الأمة في سورة الأنعام طريق الاقتداء بالمصطفين الأخيار من الذرية والآل ﴿ومِن آبائِهم وذُرِّياتِهم وإخوانِهم واجتبيناهُم وهديناهُم الى صراطٍ مُّستقيم. ذلكَ هُدى الله يهدي به من يشاء من عبادِهِ ولو أشركُوا لَحبِطَ عنهُم ما كانُوا يعملُون. أُولئكَ الذين آتيناهُمُ الكِتاب والحُكم والنُّبُوّةَ فإن يكفُر بها هؤلاء فقد وكّلنَا بها قوماً ليسُوا بها بكافرين. أُولئكَ الذين هدى الله

فبهداهُم اقتدِه قُل لا أسألُكُم عليهِ أجراً إن هُو إلّا ذكرى للعالمين﴾ الأنعام (٨٧ ـ ٩٠).

المنحرفون بالإسلام ساروا في الطريق المضاد رغبة منهم في إزاحة تلك العقبة الكبرى التي تحول بينهم وبين صوغ الإسلام وفقاً لآرائهم وأهوائهم لم يعبأوا بتلك النصائح الإلهية ولم يلتزموا بأمره تعالى ﴿أُولئك الذينَ هدى الله فبهُداهمُ اقتده﴾ واتخذوا من دون أمر الله (آلهة) ووسائط مزعومة للهداية والرشاد ليضلوا عن سبيله فكانت الوقفة المحمدية الحازمة التي سجلتها سورة الأنعام تماماً كتلك الوقفة العيسوية التي سجلتها سورة المائدة ﴿إنّ الذين فرّقُوا دينَهُم وكانُوا شيعاً لستَ مِنهُم في شيءٍ إنّما أمرُهُم الى الله ثُمَّ يُنَبئهُم بما كانُوا يفعَلُون. من جاء بالحسنةِ فلهُ عَشرُ أمثالِهَا ومن جاء بالسيئةِ فلا يُجزى إلّا مِثلَها وهُم لا يُظلمُون. قُل إنّني هداني ربّي الى صرطٍ مُّستقيم ديناً قيَماً مِّلّةَ إبراهيم حنيفاً وما كانَ مِن المُشركين. قُل إنّ صلاتي ونُسُكي ومحياي ومماتي لله ربِّ العالمين. لا شريك لهُ وبذلِكَ أُمِرتُ وأنا أوّلُ المُسلمين. قُل أغيرَ الله أبغي ربّاً وهوَ ربُّ كُلِّ شيءٍ ولا تكسبُ كُلُّ نفسٍ إلا عليها ولا تَزرُ وازرةٌ وزر أُخرى ثُمّ الى ربِّكُم مرجِعُكُم فيُنبِّئُكُم بما كُنتم فيهِ تختلِفون﴾ (١٥٩ ـ ١٦٤).

إنها المقاربة التي تؤكدها الرواية الواردة عن رسول الله فيما يعرف بكتب الصحاح (يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلا.. كما بدأنا أول خلق نعيده ألا وإن أول الخلائق يكسى إبراهيم (عليه السلام) ألا إنه يجاء برجال من أصحابي حتى إذا رأيتهم ورأوني وعرفتهم وعرفوني حيل بيني وبينهم فأقول يا رب إنهم من اصحابي فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال عيسى بن مريم «وكنت عليهم شهيداً مادمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد») رواه البخاري.

كان رسولنا الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) شاهداً على البشرية بأسرها محتملاً ما يقتضيه ذلك الموقف من أعباء لا تطيقها نفس بشرية عادية ﴿إنّا أرسلناكَ شاهِداً ومُبشِّراً ونذيرا. لِتُؤمِنُوا بالله ورسولِهِ وتُعزِّرُوه وتُوقِّرُوهُ وتُسبِّحوهُ بُكرةً وأصيلا﴾ (٨ ـ ٩) الفتح.

﴿يا أيُّها النّبيُّ إنّا أرسلناك شاهِداً ومُبشِّراً ونذيراً. وداعياً الى الله بإذنِهِ وسِراجاً مُّنيراً. وبشِّر المُؤمنين بأنَّ لهُم من الله فضلاً كبيراً. ولا تُطِع الكافرينَ والمُنافقين ودَع أذاهُم

وتوكَّل على الله وكفى بالله وكيلاً﴾ (٤٥ ـ ٤٨) الأحزاب.

بينما كان عيسى (عليه السلام) شهيداً على قومه وليس في الأمر أي نوع من التهوين أو الغض من شأن من وصفه الله تعالى بأنه (رسولُ الله وكلِمتُه ألقاها الى مريم ورُوحٌ مِّنه) فما أعظم تلك الصفات وما أعظم كلمة الله وروحه التي بعثها الى الأرض ليطهر بها الدنيا من شياطين الجن والإنس وليفسح المجال لكي تكتمل كلمات الله وينفذ أمره في خلقه.

إنها إذا بشرية وبشرية!!.

بشرية أعلى عليين على قمتها محمد الصادق الأمين التي دنت فتدانت وعلت فتعالت فكانت قاب قوسين أو أدنى صعوداً الى الأفق الأعلى فرأت من آيات ربها الكبرى وبشرية تسافلت فسفلت وهبطت وانحطت فسقطت الى سجين حيث يرقد الضالون المكذبون في القعر الأسفل من دركات البشرية حيث يلتقون هناك مع نظرائهم ممن غضب الله عليهم وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت.

ولا سواء!!.

ورغم تشابه الشكل والصورة بين ما هو عذب فرات سائغ شرابه وما هو ملح أجاج لا يروي عطشاً ولا يشفي غليلاً إلّا التباعد بينهما لا تجبره الكلمات والادعاءات والطنطنات الفارغة ﴿وما يستوي البَحرانِ هذا عَذبٌ فُراتٌ سائغٌ شرَابُهُ وهذا مِلحٌ أُجاجٌ ومنَ كُلٍّ تأكلُون لحماً طريّاً وتستخرجونَ حِليةً تلبسونها وترى الفُلك فيه مواخِرَ لِتبتغُوا مِن فضلِهِ ولعلَّكُم تشكُرون﴾ فاطر (١٢).

﴿وما يستوي الأعمى والبصير. ولا الظُّلُماتُ ولا النُّور. ولا الظِّلُّ ولا الحَرُور. وما يستوي الأحياء ولا الأمواتُ إنَّ الله يُسمِعُ مَن يشاء وما أنت بمُسمِع من في القُبُور. إن أنت إلّا نذيرٌ. إنا أرسلناكَ بالحقِّ بشيراً ونذيراً وإن مِّن أُمَّةٍ إلّا خلا فيها نذير﴾ (١٩ ـ ٢٤) فاطر.

ولا نعتقد أن ثمة حاجة الى مزيد من البيان!!.